

## علماء وأعلام

السيد محمد مهدي بحر العلوم



السيد محمد بحر العلوم، (١١٥٥ - ١٢١٢ هـ) من مراجع تقليد الشيعة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجري، درس

عند الوحيد البهبهاني والميرزا محمد مهدي الخراساني، ولقبه أستاذه الخراساني بحر العلوم، فاشتهرت أسرته بأل بحر العلوم. وقد تصدى بحر العلوم لزعامة الشيعة في زمانه، كما ويعدّ من طلائع الحركة الأصولية، بعد أن طغى التيار الأخياري على الحوزات العلمية لفترات من الزمن.

## السيرة الذاتية

السيد محمد مهدي بن مرتضى بن محمد البروجردي الطباطبائي بحر العلوم، من علماء الإمامية في القرن الثاني عشر، تخصص في علوم الفقه والأصول، والحديث، والكلام، والتفسير والرجال. ولد في عيد الفطر سنة ١١٥٥ هـ في كربلاء، كانت أسرته من الأسر العلمية ولها صلات - بالسبب والنسب - بالعوائل الشيعية المعروفة بالعلم كآسرة المجلسي.

## الدراسة والأساتذة

بدأ السيد بحر العلوم دراسته في كربلاء عند أبيه والشيخ يوسف البحراني (صاحب الحدائق)، ثم سافر إلى النجف سنة ١١٦٩ هـ، فحضر درس الشيخ مهدي بن محمد الفتوي العاملي والشيخ محمد تقي الدورقي والشيخ محمد باقر الهزارجيري، ثم رجع إلى كربلاء، وحضر درس محمد باقر البهبهاني. والشيخ يوسف البحراني، ثم ذهب إلى مشهد سنة ١١٨٦ هـ وبقي هناك سبع سنين فدرس الفلسفة آنذاك عند ميرزا محمد مهدي الخراساني، وكان السيد يشارك في المجالس العلمية والمباحثات، فظهرت علميته، بحيث لقبه الميرزا الخراساني ببحر العلوم، واشتهرت أسرته بأل بحر العلوم بعد ذلك.

## التدريس والتلامذة

بعد أن عطل البهبهاني درسه - طعناً في السن - رجع المترجم إلى النجف الأشرف بوصية من أستاذه وبدأ بالتدريس. تشرف السيد بحر العلوم سنة ١١٩٢ هـ إلى زيارة بيت الله الحرام، فكان موضع حفاوة وعناية من عامة طبقاتها، وألقى هناك محاضرات حول المذاهب المختلفة، وحضر مجلسه علماء من مذاهب أخرى.

تخرّج علماء كثيرون على يده حيث منّهم إجازة الرواية، ومن هؤلاء:

السيد صدر الدين العاملي، الشيخ جعفر كاشف الغطاء، صاحب كشف الغطاء، السيد جواد العاملي، صاحب مفتاح الكرامة، الشيخ أبو علي الحائري، صاحب منتهى المقال، المولى أحمد النراقي، السيد محمد المجاهد، جعفر بن حسين الخوانساري، الشيخ أسد الله التستري، الميرزا محمد النيسابوري المعروف بمسلكه الأخياري، الشيخ محمد علي الأعسم، السيد دلدار علي الهندي.

## مكانته الاجتماعية والعلمية

انحصرت إدارة الحوزة العلمية والتدريس والبحث به، وقد ظل يدير المحاضرات - بمختلف العلوم الإسلامية - طيلة أكثر من عشرة أعوام حتى نشأ على يديه جمع غفير من رواد الفضيلة وطلاب العلوم والآداب، فكانوا - بعد وفاته - من عيون العلماء ومفاخر الأدباء.

اعترف علماء المذاهب بفضله في "مكة" حينما كانوا يحضرون محاضراته، وكذلك علماء اليهود في مناظرته لهم في ناحية "ذي الكفل".

## الآثار

كتاب الدرّة النجفية و أيضاً له مجموعة من المؤلفات، منها: المصابيح، في العبادات والمعاملات، الدرّة النجفية، مشكاة الهداية، الرواية المتنورة للدرّة النجفية في باب الطهارة، الفوائد الرجالية: في علم الرجال الذي يعرف فيه الأسر العلمية والحديثية المشهورة للشيعة وكذلك يعرف العلماء الإمامية، تحفة الكرام في تاريخ مكة و البيت الحرام، ديوان الشعر، الذي فيه أكثر من ١٠٠٠ بيت وأكثرها في مدح وثناء أهل البيت عليه.

## وفاته

توفي في رجب ١٢١٢ هـ في النجف، وصلى على جثمانه المرجع الديني السيد محمد مهدي الشهرستاني، ودفن في الجامع الطوسي.

قد قمنا بمناقشة الروحانية العلمانية وناقشنا فكرة مأزق المعنى في الحضارة المعاصرة، وذلك من خلال حوار مع الدكتور محمد فنائي إشكوري. يناقش الحوار الفرق بين الروحانية العلمانية والروحانية الدينية، حيث يتم التطرق إلى أن الروحانية المعاصرة، خصوصاً في الغرب، تفصل الروحانية عن الدين والإيمان بالله، مما يخلق نوعاً من التناقض. وقد أشار الدكتور فنائي في الجزء الأول من هذه المقابلة إلى أن هذه الروحانية الجديدة تعتمد على طرق مؤقتة لتحقيق السلام النفسي، مثل اليوغا والعقاقير، ولكنها تفتقر إلى العمق الذي توفره الروحانية المرتبطة بالإيمان بالغيب. وفي هذا الجزء نتابع الحوار مع سماحته:

هل لكم أن تحلّلوا لنا المبنى الأبيستيمولوجي للنزعة المعنوية والروحانية الجديدة؟

من الواضح أنّ ابستيمولوجيا الروحانية الجديدة تختلف عن الأديان السماوية. تقوم فرضية المؤسسين للروحانية العلمانية على أن الوصول إلى السعادة لا يحتاج إلى هداية إلهية؛ وذلك لأنّ في عقل الإنسان كفاية، ويمكنه لوحده أن يعثر على طريق السعادة والشقاء، أو أنهم كانوا بشكل عام ينكرون ميتافيزيق الأديان وغفلوا عنه؛ وعلى هذا الأساس يقوم فنائي مبناهم الأبيستيمولوجي يقوم على أنّ الإنسان يستطيع بمفرده أن يتبدّر الطريق إلى السعادة. إنّ المبنى الأبيستيمولوجي لهذه الروحانية يقوم على كفاية العقل والتجربة البشرية. يحدث في بعض الأحيان أن يجعل الشخص من تجربته الشخصية أساساً للوصول إلى الطريق الصحيح في الحياة، إلا أنّ هذا الشخص في غاية السذاجة والسطحية أو أنه يعاني من داء النرجسية والغرور والعُجب؛ حيث يرى نفسه بمستوى الأنبياء وأنه هو الذي يحدّد الصراط المستقيم؛ وعليه فإنّ الاعتماد على العقل المحدود والممزوج بالأهواء النفسية يعدّ أساساً أبستيمولوجياً لبعض الروحانيات الجديدة. وبعبارة أخرى: يقوم افتراضهم على أنّ مجموعة القوى الإدراكية للإنسان والتجربة البشرية والتجربة الشخصية للفرد تكفي للهداية والحياة الصحيحة، وأنه لا حاجة إلى الوحي في تحديد السعادة. وهذا بطبيعة الحال في مقام الادّعاء؛ إذ إنّهم لا يستفيدون حتى من العقل والتجربة؛ بمعنى أنّ مدّعياتهم لا تستند إلى دعامة عقلية أو تجريبية، بل تقوم على التخيّلات والتخليلات الوهمية، والعلوم والتجارب الناقصة، والأهواء النفسية التي تتجلّى في قالب من الخرافات وأنواع الخداع والتضليل. وتارة تقوم الادّعاءات على هذا المبنى القائل بأنّه هناك حاجة إلى الله، ولكن لا حاجة إلى وحي الأنبياء، وإنما تأخذ الحقيقة من الله مباشرة، بمعنى أنهم يدعون نوعاً من النبوة، أو يقولون إنّ القلب كفيلاً بأن يدلّ إلى الطريق الصحيح؛ بيد أنّ هذه المدعيات جميعها ليست سوى أوهام، ولا يمكن لها أن تقوم على أساس من الصحة.

هل المبنى الأبيستيمولوجي للحدائفة متجانس مع مبنى النزعة الروحانية الجديدة؟

أجل، غاية ما هنالك أنّ الحدائفة تدعي الاستغناء عن الوحي، وتكتفي بالعقل الجمعي للبشر، وتعمل على توظيف العقل والمنطق والعلم التجريبي؛ وأما في الروحانية الجديدة فلا يتمّ توظيف العقل الفلسفي والتجريبي؛ بمعنى أنّها لا تمتلك دعامة استدلالية وعقل تجريبي وعلمي، وأما الحدائفة فإنّها تمنح قيمة للعقل والتجربة. وليس لدينا اعتراض على ذلك بطبيعة الحال؛ وذلك لأنّنا بدورنا نقول باعتبار العقل والتجربة أيضاً، ولكننا

## حوار / الجزء الثاني والأخير

# الروحانية العلمانية هي تعبير عن مأزق المعنى في الحضارة المعاصرة

الحوار مع: د. محمد فنائي إشكوري  
تعريب: حسن علي مطر الهاشمي



بعض الفِرَق المنحرفة المتظاهرة بالتصوّف المعاصر ذات جذور إسلامية بحسب الظاهر وتعرّف عن نفسها بوصفها إسلامية، وتعتقد بتقديم تفسير صحيح للإسلام؛ إلا أنّ بعض هذه النحل لا صلة لها بالأديان، وإنّما هي مستقلة عنها. وإنّ المستقبل منها يؤمن بالله، ولكنه لا يعتقد بدين. وإنّ بعض التيارات لا تؤمن حتى بالله، بل هي مادية بشكل تام؛ وعليه ليس هناك حكم واحد يمكن تعميمه على جميع هذه التيارات؛ ولكن يمكن القول: إنّ الحركات العلمانية الروحانية تعتقد بنوع من الإنسوية ومحورية الإنسان. وحتى إذا كانوا يعتقدون بالله، لا يكون له دور في حياتهم؛ بمعنى أنّهم لا يعتقدون بالربوبية التشريعية لله عزّ وجل. فهم يعتقدون بنوع من الربوبية وبيرون أنّ الله خلق هذا العالم وانتهت مهمته عند هذا الحد. والآن علينا أن نعمل على تنظيم حياتنا بأنفسنا. إنّ من لوازم تاصيل الإنسان عدم الحاجة إلى الدين والشريعة. إنّ هذه الموارد بمنزلة الفرضيات للانثروبولوجيا

والروحانية الجديدة. وفي المقابل فإنّ الرؤية الدينية تتمحور حول الله، وترى نوعاً من الاحتياال والخرافة. وبطبيعة الحال فإنّ الروحانية الجديدة غير منفصلة عن الحدائفة؛ وذلك لأنّ الاعتقاد السائد والحاكم على الحدائفة قد جرد الإنسان من الروحانية الحقيقية، في حين لا يمكن سلب الحاجة إلى الروحانية عن الإنسان. ومن هنا حيث يتمّ سلب الروحانية الحقيقية من الإنسان، يحلّ محلّها اختلاق الروحانيات المصطنعة قسراً، وهذا هو المتحقق في لحظتنا الراهنه. وبعبارة أخرى: إنّ الحدائفة ليست دليلاً على الروحانيات الجديدة، ولكنها من أسباب ظهورها، بمعنى أنّ البُعد الإيجابي للحدائفة الذي يستند إلى العقل والتجربة، لا يبرز خرافات الروحانيات الجديدة؛ وذلك لأنّها لا تقوم على العقل والتجربة العلمية؛ وأما البُعد السليبي للحدائفة الذي يتجاهل عالم الغيب والوحي، فإنّه يقود البشر إلى اختراع هذا النوع من المعنويات؛ كي يروي الظمّ الروحي والمعنوي للإنسان.

ثانياً: إنّ من بين أهمّ خصائص هذه التعاليم والمعارف، هي العقلانية والاعتدال والبعد عن الإفراط والتفريط. نرى في بعض فِرَق التصوّف إفراطاً أو تفريطاً. فإنّ بعض الفِرَق المعنوية والروحية شديدة الارتياض، حيث تمارس الرياضات التي يندر أن يتحمّلها الأشخاص. ومن جهة أخرى هناك من لا يقوم بأي نوع من أنواع الرياضات، ويدعو إلى اللهو والطرب والمتعة. وهؤلاء يعملون على الترويج إلى روحانية مجردة من الألم والارتياض؛ وأما في التعاليم الإسلامية/ العرفانية، فقد تمّ لحاظ الحدّ الوسط والاعتدال؛ فليس فيها رياضة قاسية لا يستطيع الإنسان تحمّلها، ولا منهج الراحة والانغماس في الأهواء والملذات.

ثالثاً: يحتوي عرفان أهل البيت عليه على الشمولية والجامعية؛ بمعنى أنّه ليس أحادي البُعد، وبذلك فإنّه يأخذ البعد المادي للإنسان كما يأخذ بعده المعنوي بنظر الاعتبار أيضاً. إنّ هذا العرفان لم يعمل على بناء المعنويات والروحانيات بمعزل عن الماديات، وبذلك فإنّه يحترم احتياجات الإنسان المادية؛ وذلك لأنّه يرى أنّ هذا البُعد يمثل جزءاً من الإنسانية أيضاً. ومن هنا فإنّ عرفان أهل البيت عليه يعتبر منظومة جامعة تهتمّ بكلّ النوعين من احتياجات الإنسان المادية والمعنوية.

رابعاً: إنّهُ يأخذ كلاً من الدنيا والآخرة بنظر الاعتبار؛ بمعنى أنّ هذه

بعض الفِرَق المنحرفة المتظاهرة بالتصوّف المعاصر ذات جذور إسلامية بحسب الظاهر وتعرّف عن نفسها بوصفها إسلامية، وتعتقد بتقديم تفسير صحيح للإسلام؛ إلا أنّ بعض هذه النحل لا صلة لها بالأديان، وإنّما هي مستقلة عنها. وإنّ المستقبل منها يؤمن بالله، ولكنه لا يعتقد بدين. وإنّ بعض التيارات لا تؤمن حتى بالله، بل هي مادية بشكل تام؛ وعليه ليس هناك حكم واحد يمكن تعميمه على جميع هذه التيارات؛ ولكن يمكن القول: إنّ الحركات العلمانية الروحانية تعتقد بنوع من الإنسوية ومحورية الإنسان. وحتى إذا كانوا يعتقدون بالله، لا يكون له دور في حياتهم؛ بمعنى أنّهم لا يعتقدون بالربوبية التشريعية لله عزّ وجل. فهم يعتقدون بنوع من الربوبية وبيرون أنّ الله خلق هذا العالم وانتهت مهمته عند هذا الحد. والآن علينا أن نعمل على تنظيم حياتنا بأنفسنا. إنّ من لوازم تاصيل الإنسان عدم الحاجة إلى الدين والشريعة. إنّ هذه الموارد بمنزلة الفرضيات للانثروبولوجيا

والروحانية الجديدة. وفي المقابل فإنّ الرؤية الدينية تتمحور حول الله، وترى نوعاً من الاحتياال والخرافة. وبطبيعة الحال فإنّ الروحانية الجديدة غير منفصلة عن الحدائفة؛ وذلك لأنّ الاعتقاد السائد والحاكم على الحدائفة قد جرد الإنسان من الروحانية الحقيقية، في حين لا يمكن سلب الحاجة إلى الروحانية عن الإنسان. ومن هنا حيث يتمّ سلب الروحانية الحقيقية من الإنسان، يحلّ محلّها اختلاق الروحانيات المصطنعة قسراً، وهذا هو المتحقق في لحظتنا الراهنه. وبعبارة أخرى: إنّ الحدائفة ليست دليلاً على الروحانيات الجديدة، ولكنها من أسباب ظهورها، بمعنى أنّ البُعد الإيجابي للحدائفة الذي يستند إلى العقل والتجربة، لا يبرز خرافات الروحانيات الجديدة؛ وذلك لأنّها لا تقوم على العقل والتجربة العلمية؛ وأما البُعد السليبي للحدائفة الذي يتجاهل عالم الغيب والوحي، فإنّه يقود البشر إلى اختراع هذا النوع من المعنويات؛ كي يروي الظمّ الروحي والمعنوي للإنسان.

هل لكم أن تحلّلوا المباني الانثروبولوجية للنزعة الروحانية الجديدة؟

إنّ الحركات المعنوية والروحانية لم تكن -بطبيعة الحال- على وتيرة واحدة، بل هي متنوّعة على نطاق واسع. إنّها تشترك فيما بينها من بعض الجهات، وتختلف كثيراً في بعض الجهات الأخرى. من ذلك -على سبيل المثال- أنّ بعضها قد أحدث بعض التغييرات في الأديان، من ذلك أنّ الهندوسية قد مزجت بين المسيحية أو أديان الهند الحُرُم مثلاً وصاغتها على شكل حركة روحانية جديدة، وفي الحقيقة فقد أوجدت بينها وبين الأديان القديمة صلة مفهومية. وإنّ

كيف يمكن الاستفادة من ظرفية التعاليم وروحانية أهل البيت عليه بوصفها عنصراً أساسياً لمواجهة الروحانية الجديدة؟

إنّ الإمكانيات الموجودة في

السنة الدينية لا تقول: جئت للتضحية بديناكم على حساب آخرتكم. في حين أنّ المادية تضخّي بالآخرة على حساب الدنيا. وفي المقابل فإنّ بعض المدارس الأخروية المتطرّفة تعمل على تدمير الدنيا أيضاً. والحال أنّ الإنسان في فضاء التعاليم الإسلامية يعيش في هذه الدنيا حياة رغيدة لا تخلو من الحبور.

خامساً: إنّ التعاليم الإسلامية تقيم توازناً بين البُعد الفردي والبُعد الاجتماعي، وتلاحظ الجامعية بينهما. إنّ الكثير من المذاهب العرفانية والمعنوية تنزع بشكل وآخر إلى الفردانية، وتنصح كلّ شخص بأن يعمل على إنقاذ نفسه بمفرده، ولا يكون له شأن بالآخرين، أو تدعو إلى العزلة. إنّ نشاط الإنسان المعنوي والروحي في التعاليم الإسلامية يحتوي على روح معنوية. وفي الحقيقة فإنّ كلّ عمل صحيح يقوم به الإنسان من أجل مرضاة الله وبنية فعل الخير، يعدّ عملاً روحانياً ومعنوياً؛ سواء أكان هذا النشاط في المعمل أم في الأندية الرياضية أم في القراءة أم التحقيق أم التدريس، وإنّ أفضل الناس عند الله هم أنفعهم للناس. هذا هو منطوق مدرسة أهل البيت عليه.

سادساً: إنّ من بين الخصائص البارزة الأخرى لمدرسة أهل البيت عليه -بالمقارنة مع المدارس والاتجاهات الروحانية الأخرى- امتلاك هذه المدرسة لنماذج روحانية ومعنوية وعرفانية كاملة؛ وبذلك فإنّ الإسلام يمتاز من هذه الناحية من سائر الأديان الأخرى. والملفت أنّ مقدّسات الأديان السماوية الأخرى جميعها تعدّ جزءاً من مقدّسات الإسلام أيضاً، وفي الحقيقة فإنّ الأنبياء جميعهم يمثّلون أسوة للمسلمين. يضاف إلى ذلك أنّ التعاليم الإسلامية تقدّم أربعة عشر معصوماً، بوصف كل واحد منهم إنساناً كاملاً. حيث عاش كلّ واحد منهم في مرحلة زمنية وظروف مغايرة للظروف والمرحلة الزمنية التي عاش فيها الآخرون منهم. وبذلك يمكن لنا الحصول على الشخص الكامل الذي نتأسى به في مختلف الظروف والشرائط، وفي مركزية هؤلاء يقف النبي الأكرم عليه بوصفه النموذج الكامل والأمثل في الوجود. حيث نجد الإنسان الكامل الحاكم، مثل أمير المؤمنين عليه، والإنسان الكامل الذي يمارس الجهاد في الخفاء، من أمثال الأئمة المتأخرين عليه، والإنسان الكامل الذي خاض حرباً مغلّنة في رفض الظلم والاستسلام حتى الاستشهاد، مثل الإمام الحسين عليه، والإنسان الكامل الذي دفعته الظروف إلى التحاور والتفاوض مع الأعداء ويصل بذلك إلى معاهدة سلام لتطوى تلك المرحلة، مثل الإمام الحسن عليه، والأجمل والأروع من ذلك كله أنّ الإسلام يقدم لنا امرأة معصومة، تثبت أنّ الروحانية والعرفان الإسلاميين ليس من مختصات الرجال فقط.

سابعاً: إنّ في الإسلام كتاباً سلم من أيدي التحريف والتلاعب؛ وعلى هذا الأساس فنحن نمتلك تعاليم سماوية خاصة، وعليه إذا استطعنا التعريف بالمدرسة والثقافة الإسلامية بشكل صحيح، فإنّ شعوب المعمورة سوف تعتنق هذه التعاليم بسعادة بالغة. وإذا كان الناس في الوقت الراهن والمرحلة المعاصرة بعيدين كلّ البُعد عن تعاليم الإسلام، فإنّ مرز ذلك يعود إلى أنّ المسلمين لم يتمكنوا من تعريف الإسلام بالشكل الصحيح. انتهت

المصدر: العتبة العباسية المقدسة/ المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية